

مقام الشيخ أحمد القطرواني: استمرارية التقاليد الدينية

مجلة التراث والمجتمع العدد 50 - د. حمدان طه - 2009/05/19م - 10:48 ص



مقدمة

يمثل مقام الشيخ أحمد القطرواني نموذجاً للمقامات الدينية الإسلامية التي انتشرت في كافة أرجاء فلسطين، وشكلت مثلاً حياً على استمرارية التقاليد الدينية المتوارثة حول المكان. وترمز هذه المقامات والطقوس المرتبطة بها إلى بعض مظاهر الدين الشعبي، التي تمتد جذورها إلى الماضي البعيد، وشكلت جزءاً من وعي الإنسان الفلسطيني للظواهر المحيطة به، وهي من أشكال الوعي التي أخذت تتبدد في العقود الأخيرة، وتخلع عنها صفة القداسة، لأسباب تتعلق بتغير نظرة الإنسان إلى دور هذه المقامات والأولياء في الحياة في المعاصرة، وهو التحول الذي رصده د. توفيق كنعان منذ مطلع القرن الماضي (1927) في عمله التأسيسي حول الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين، ولكن المخاطر الراهنة التي تتعرض لها المقامات تتمثل في محاولة الاحتلال الاستيلاء على هذه الرموز الدينية وتوظيفها أيديولوجياً لأغراض الاستيطان، إلى جانب بعض الفتاوى الأصولية الحديثة التي ترى فيها بدعة من بدع الإيمان. يدل على ذلك حالة الإهمال المؤسفة التي تتعرض لها هذه المباني الدينية، والتي تستدعي النظر لها كقيمة تاريخية دينية ترمز إلى الذاكرة التاريخية للشعب الفلسطيني حول المكان، وتشكل جزءاً لا يتجزأ من التراث الثقافي الفلسطيني. في هذا المقام لا بد من التنويه بالجهود التي قامت بها دائرة الآثار الفلسطينية ومؤسسات أخرى في ترميم العديد من هذه المقامات وصيانتها، ثم الدراسات الصادرة حولها، وأخص بالذكر المسح الشامل الذي قام به د. شكري عراف

مقام الشيخ أحمد القطرواني: استمرارية التقاليد الدينية

د. حمدان طه*

مقدمة

يمثل مقام الشيخ أحمد القطرواني نموذجاً للمقامات الدينية الإسلامية التي انتشرت في كافة أرجاء فلسطين، وشكلت مثلاً حياً على استمرارية التقاليد الدينية المتوارثة حول المكان. وترمز هذه المقامات والطقوس المرتبطة بها إلى بعض مظاهر الدين الشعبي، التي تمتد بجذورها إلى الماضي البعيد، وشكلت جزءاً من وعي الإنسان الفلسطيني للظواهر المحيطة به، وهي من أشكال الوعي التي أخذت تتبدد في العقود الأخيرة، وتخلع عنها صفة القداسة، لأسباب تتعلق بتغير نظرة الإنسان إلى دور هذه المقامات والأولياء في الحياة في المعاصرة، وهو التحول الذي رصده د. توفيق كنعان منذ مطلع القرن الماضي (1927) في عمله التأسيسي حول الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين، ولكن المخاطر الراهنة التي تتعرض لها المقامات تتمثل في محاولة الاحتلال الاستيلاء على هذه الرموز الدينية وتوظيفها أيديولوجياً لأغراض الاستيطان، إلى جانب بعض الفتاوى الأصولية الحديثة التي ترى فيها بدعة من بدع الإيمان. يدل على ذلك حالة الإهمال المؤسفة التي تتعرض لها هذه المباني الدينية، والتي تستدعي النظر لها كقيمة تاريخية دينية ترمز إلى الذاكرة التاريخية للشعب الفلسطيني حول المكان، وتشكل جزءاً لا يتجزأ من التراث الثقافي الفلسطيني. في هذا المقام لا بد من التنويه بالجهود التي قامت بها دائرة الآثار الفلسطينية ومؤسسات أخرى في ترميم العديد من هذه المقامات وصيانتها، ثم الدراسات الصادرة حولها، وأخص بالذكر المسح الشامل الذي قام به د. شكري عراف

* باحث في الآثار والتراث الثقافي، ووكيل مساعد في وزارة السياحة والآثار.

(1993) في كتابه طبقات الأولياء والأنبياء الصالحين في الأراضي المقدسة.

يقع مقام الشيخ أحمد القطرواني ما بين بيرزيت وعطارة، على بعد 2 كم إلى الغرب من "خربة طرفين"، وعلى بعد 3 كم إلى الشمال من بيرزيت. ويحتل المقام موقعاً مشرفاً على مرتفع "ظهرة حمودة"، ويظهر بقبنيه البيضاويتين كعش كبير، وبطل على "وادي الدورة" من جهة الجنوب. ويقع المقام على خارطة رقم 14 من مسح غرب فلسطين. ويتكون الموقع من بقايا مقام إسلامي شُيد على أنقاض كنيسة بيزنطية دراسة. أظهرت المسوحات الأثرية دلائل تعود إلى مرحلتين معماريتين رئيسيتين في تاريخ الموقع. ويحيط بالموقع غابة من شجر البلوط والخروب، وهي محفوظة في حالة جيدة، نظراً لوجود قاعدة تقول بأنه لا أحد يجرؤ على قطع أي غصن من هذه الأشجار مهما كان صغيراً، لأنه يعتبر من أملاك الولي.

قامت دائرة الآثار العامة في الفترة ما بين 1997-1998 بتنفيذ سلسلة من أعمال الحفاظ في الموقع، تمثلت بإجراء مسح طبوغرافي تفصيلي للموقع، وأعمال تنظيف للمقام والمنطقة المحيطة به، وترميم المقام، إلى جانب أعمال تنقيب محدودة في الجزء الشرقي من الكنيسة. وقد جرى العمل في إطار المشروع الطارئ لتنظيف المواقع الأثرية في فلسطين، 1997-1998 الممول من قبل الحكومة الهولندية. وتم تنفيذ أعمال الترميم والتنقيب من قبل طاقم فني من دائرة الآثار العامة في وزارة السياحة والآثار تحت الإشراف العلمي لكاتب هذه المقالة. وتكون الطاقم الفني من السادة يوسف أبو طاعة، وعصام حلايقة، ووائل حمامرة، وأشرف على أعمال الترميم المهندسة نورهان أبو جدي، وقام بالتنقيب في الموقع السادة جهاد ياسين وصالح طوافشة ومحمد الشيخ وفراس عقل. وقام برسم المبنى المهندسة نورهان أبو جدي، وأعيد الرسم لأغراض النشر من قبل الرسام إبراهيم أقطيط.

تاريخ الموقع

إن معظم المعلومات المتوفرة عن الموقع مستمدة من المصادر الاثنو-تاريخية. وحسب هذه المصادر سُمي الموقع نسبة إلى الشيخ أحمد القطرواني، وهو ولي من قرية قطرة الساحلية، وتقع إلى الشمال من مدينة غزة. وهناك العديد من الروايات الاثنو-تاريخية حول أصل المقام والسولي رواها الباحثان الألمانيان هانز شميدت وبول كالة (1918) ود. توفيق كنعان (1927) وروولاند دي فو (1946) ود. عبد اللطيف البرغوثي (1979). وحسب القصة الشعبية الشائعة التي رواها د. توفيق كنعان على لسان أهل قرية عطارة المجاورة "عاش الشيخ القطرواني في قرية قطرة التي تقع إلى الشمال من مدينة غزة، وقد غادر قريته لأنه لم يعد قادراً على أداء واجباته الدينية فيها وجاء إلى هذه البقعة المنعزلة في ظهرة حمودة، وهي موقع مشرف يقع بين عطارة وبيرزيت، وهنا عاش مكرساً حياته للصلاة والتسك". وحسب رواية شعبية ثانية نقلها د. توفيق كنعان (1927: 51-52)، طار جسده عن أكتاف المشيعين عندما حمل نعشه لدفنه في قريته، واستقر على هذه التلة حيث ينتصب مقامه اليوم.

وقد ذكر شميدت وكالة (1918: 2) قصة رواها لهم يعقوب أبو جريس، وهو شخص طاعن في السن من بيرزيت، القصة التالية: ما بين بيرزيت وعطارة هناك ولي مشهور، وله مقام بقبطين، يقع بين غابة من أشجار البلوط. وأصله دير مار يوحنا. ويشاهد الإنسان اليوم بقايا أعمدة ويئر أمامه. ومن نقطة فوق المقام يرى الإنسان جبل الشيخ جهة الشمال وجبل العاصور جهة الشرق. ويزور المسلمون المقام للوفاء بنذورهم، ويزور المسيحيون هذا المكان الجميل للاستجمام. ويضيف أبو جريس "في يوم من الأيام وجد الناس درويشاً يستريح في هذا المكان، وعندما سأله الناس عن أصله أجاب بأنه من قرية قطره، وقد حملته الملائكة إلى هذا المكان، حيث سيلقى أجله. واهتم به أهالي قرى عطارة وعجول وسلواد والقرى المجاورة الأخرى، وزودوه بالمؤونة لمدة أربع سنوات. وفي أحد

الأيام وجدوه وقد فارق الحياة، ودفن إلى الغرب من المقام. وما زال قبره قائماً (شميدت وكالة 1918: 2، علوش 1990: 3). وما زال بعض سكان بيرزيت يحملون الاعتقاد بأن الموقع هو دير مسيحي يحمل اسم القديسة كاترين (كنعان 1927: 288، دي فو 1946: 264)، مشيراً ربما إلى العلاقة اللغوية الاشتقاقية بين اسم قطرواني واسم كاترين.

عرف القطرواني في التقاليد الشعبية بقواه الخارقة. وتذكر الروايات قصة شخص اختلف مع زوجته، إلى حد أنه ترك بيته ولجأ إلى مقام القطرواني. وقد زوده الولي يوماً بحاجته من الأكل، وطلب منه أن يحفظ هذا السر، ولم يعز الرجل شيئاً. ولكن في اللحظة التي أفشى فيها السر أمتنع الولي عند تقديم هذه الخدمة (كنعان 1927: 227). وفي قصة أخرى من بيرزيت رواها د. عبد اللطيف البرغوثي (1979: 158-160) ما يشير إلى أن الموقع مسكون بجنية، وهو أمر غير مألوف في مقامات الأولياء، إذ لا تقطنها الجنيات عادة حسب المعتقدات الشعبية.

ويعتبر القطرواني أحد الأولياء الأقوياء، وواحد من المقامات القليلة المعروفة بقدرتها على استجلاب بركة المطر (كنعان 1927: 227). وقد روى كنعان بعض أغاني الاستسقاء التي يطلب فيها من الولي إنزال المطر:

يا ربي الغيث سماوي	بجاه الشيخ القطراوي
يا ربي الغيث دقيقة	بجاه النبي وصديقه
بجاهو ترحم الأولاد	بالمطر أم البلاد
يا ربي الغيث يا جواد	نطلب منك جرة واد
بجاه الشيخ القطراوي	يا ربي وادي سلواد

وما زال الموقع يحظى بالتكريم لدى المسلمين والمسيحيين من القرى المجاورة، كدليل على استمرارية التقاليد الدينية حول المكان.

وصف الموقع

يمثل مقام القطرواني مزاراً إسلامياً نموذجياً من الفترة المملوكية-العثمانية. وقد شُيد هذا المقام على أنقاض دير أثري مهجور من الفترة البيزنطية. وتتشكل العناصر الرئيسية للموقع من مبنى المقام وبقايا الكنيسة، وأجزاء من السور المحيط بالموقع والكهف والبئر. وقد أمكن التمييز ما بين مرحلتين استيطانيتين رئيسيتين في تاريخ الموقع. تتكون المرحلة الأولى من بقايا الكنيسة والبئر والكهف وتعود بتاريخها للفترة البيزنطية، أما المرحلة الثانية وتعود بتاريخها للفترة المملوكية-العثمانية، فتتمثل ببناء المقام والساحة الأمامية، وإعادة استخدام مرافق الموقع كالبئر والكهف.

بقايا الفترة البيزنطية

تتكون البقايا البيزنطية الممتدة للمرحلة الأولى من أساسات جدران الكنيسة وأعمدها، إضافة إلى الكهف وجزء من السور المحيط بالموقع والبئر ومعصرة النبيذ وبعض المباني المهدامة إلى الغرب من الكنيسة.

الكنيسة

تقوم الكنيسة على مخطط بازيليكى مستطيل، رغم أن محراب الكنيسة، الذي يقع ربما تحت المقام نفسه، لم يتم الكشف عنه بعد. كما أن التقسيمات الداخلية للمبنى ليست واضحة أيضاً. أما أبعاد الكنيسة من الخارج فتصل أطوالها 31 متراً (شرق-غرب) و15 متراً (شمال-جنوب). ويوجد في المبنى صفتان من الأعمدة باتجاه شرق-غرب. (فنكلشتاين وليدرمان 1993، عوفاديا ودي سلفا 1981: 254). ويتكون كل صف من ست أعمدة، تنفصل عن بعضها مسافة أربعة أمتار. وفي الصف الجنوبي هناك ستة أعمدة ما زالت محفوظة جزئياً في مواقعها الأصلية. وفي الصف الشمالي هناك ثلاثة أعمدة محفوظة، وربما تمت إزالة بعض الأعمدة كنتيجة لعمليات البناء اللاحقة والتي أدت إلى تدمير بعض أجزاء الكنيسة. وترتفع الأعمدة قليلاً عن مستوى سطح الأرض. وجميع هذه الأعمدة مقطوعة من الحجر الجيري المحلي الصلب.

وقد شيدت الكنيسة بالحجارة المشذبة جزئياً والحجارة الغشيمة، والجدار الخارجي للمبنى بعرض 1.50 متر ويتكون من صفين، بُني الصف الخارجي بحجارة مشذبة جزئياً، أما الصف الداخلي فقد بني بالحجارة الغشيمة، الصغيرة والمتوسطة الحجم. والواجهة الداخلية للجدار مقصورة بطبقة سميكة بالملاط الأبيض. وتتكون أرضية المبنى من طبقة من الملاط الأبيض، ولا يوجد أي دليل على استخدام الفسيفساء في أرضية المبنى، كما هو شائع في مباني هذه الفترة. أما الباب الرئيسي للكنيسة فيقع من جهة الشمال، كما يستدل على ذلك من وجود بعض الحجارة المشذبة والمدقوقة في الجزء الأوسط من الجدار الشمالي، إضافة إلى الحجارة المتناثرة في أرجاء المكان والتي تشكل صداغات وعتبات وشاشيات الأبواب والشبابيك.

التنقيبات في الكنيسة*

قامت دائرة الآثار العامة بتنفيذ حفرة استكشافية بسيطة في الموقع في الفترة ما بين 19-26/9/2001 تحت الإشراف العلمي لكاتب هذا التقرير. وبمساعدة جهاد ياسين كمشرف ميداني، والسادة فراس عقل وصالح طوافشة ومحمد السيخ، كمشرفي مربعات.

كان الهدف الرئيسي من عمليات التنقيب هو فحص التسلسل الطبقي في الموقع. وجرت التنقيبات أيضاً في إطار "مشروع حماية الموارد الطبيعية والحضارية" الممول من قبل الحكومة الهولندية.

اقتصرت عملية التنقيب على منطقة صغيرة إلى الشرق من مبنى المقام. ولهذا الغرض تم فتح مربعين 4X4 م في الجزء الشرقي من الكنيسة. مربع رقم 1 (الجنوبي) في الزاوية الجنوبية الشرقية للكنيسة، ومربع رقم 2

* تكون الطاقم الفني من السادة يوسف أبو طاعة، وعصام حلايقة، ووائل حمامرة، وأشرف على أعمال الترميم المهندسة نورهان أبو جدي والمهندس أسامة حمدان، وقام بالتنقيب في الموقع السادة جهاد ياسين وصالح طوافشة ومحمد السيخ وفراس عقل. وقام برسم المبنى المهندسة نورهان أبو جدي، وأعيد الرسم لأغراض النشر من قبل الرسام إبراهيم اقطيط.

(الشمالي) إلى الشمال من المربع الأول، بمحاذاة الجدار الشرقي للكنيسة، وعلى بعد متر واحد كقاطع بينهما. وتم تنقيب نصف المربع الأول وشريط بعرض متر واحد من المربع الثاني.

التسلسل الطبقي

تم التمييز بين ثلاث طبقات متجانسة رئيسية من التراكمات في منطقة التنقيب في المربعين 1 و 2 على الوجه التالي:

طبقة 1	حديثة
طبقة 2	الفترة المملوكية-العثمانية
طبقة 3	الفترة البيزنطية

طبقة 1 (الحديثة)

تتكون الطبقة السطحية من التربة الزراعية، والتي تغطي كافة أرجاء الموقع. وسماكة هذه الطبقة حوالي 30 سم. وهي طبقة ذات تربة متماسكة تتخللها جذور أشجار البلوط. أما اللقى الأثرية فتتكون من كسرات من الفخار، وقطعة نقد حديثة من الفترة الأردنية. وقد عثر في هذه الطبقة على حجر مشذب يحمل حرفاً يونانياً، ويشبه حجراً آخر أعيد استعماله بشكل ثانوي في بناء الجدار الشرقي للمقام.

واللقى المكتشفة في هذه الطبقة شحيحة للغاية، وتتكون من كسرات من أجسام الأوعية الفخارية، وهي محززة عموماً ومصنعة على الدولاب من نوع الفخار البيزنطي الشائع. وقاعدة مستوية لجرة فخارية. أما فخار الفترة المملوكية المتأخرة والفترة العثمانية فقد تمثل ببضع كسرات من الفخار المزجج والعادي، وهو من نوع الفخار المصنوع يدوياً، وطينتها مليئة بالشوائب.

وتظهر نفس الصورة تقريباً في المربع الثاني، فخار هذه الطبقة يتكون أيضاً من بضع كسرات من الفخار، لجرار من مختلف الأحجام، وهو فخار محرز آلياً على الدولاب وبألوان قرمزية وضاربة إلى الحمرة. ومن الفخار المميز لهذه الفترة مقبض ذو مقطع مسطح وكسرة سراج بيزنطي.

أما فخار المرحلة المملوكية-البيزنطية فيتمثل بكسرات من الفخار السميك المصنع يدوياً ويحمل بعضه دهاناً أحمرّاً على شفة الأنية.

طبقة 2 (المملوكية-العثمانية)

وهي طبقة من الردم يصل سمكها إلى 70 سم. وتتكون من حجارة بأحجام كبيرة ومتوسطة وصغيرة وشيد وقطع من القسارة. والعنصر الأساسي لهذه الطبقة هو الحجارة المتساقطة، ومعظمها مشذب، والبقية من الحجارة الغشيمة. وأغلب الظن أن هذه الحجارة المشذبة قد جاءت من الجدران والأفواس المنهارة للمبنى. وتخللت جذور الأشجار طبقة الردم هذه. وعثر في هذه الطبقة على بضع كسرات من الفخار فقط. وغياب اللقى الأثرية في هذه الطبقة مثير للاهتمام، ويشير ربما إلى فترة الاستخدام القصيرة للمبنى، قبل تعرضه للهدم وهجره بشكل نهائي. كما تشير أيضاً إلى أن جزءاً من المبنى كان مكتشوفاً، عند تشييد المقام، وهو ما يفسر شح اللقى الفخارية في المنطقة المنقبة.

طبقة 3 (البيزنطية)

وهي الطبقة الأكثر قدماً في الموقع وتتكون من البقايا المعمارية الرئيسة للمبنى المكتشف في هذا الجزء، وهي الجدار الجنوبي والجدار الشرقي والأرضية المقصورة بالملاط وأحد الأعمدة المكتشفة في الزاوية الجنوبية الغربية للمربع الجنوبي. والجدار حيز رقم 4 هو جزء من الجدار الرئيسي الجنوبي للمبنى، وهو بطول 3.5م وعرض متر واحد. كان السطح الخارجي للجدار مكتشوفاً فوق مستوى سطح الموقع قبل بدء العمل. والجدار محفوظ بارتفاع 1.10م فوق مستوى مصطبة المبنى. ويمتد الجدار باتجاه الغرب تحت منسوب جدار المقام. وتتصل من جهة الشرق بالجدار الشرقي للمبنى مشكلاً الزاوية الجنوبية الشرقية للمبنى. والجدار مشيد من صفيين من الحجارة، الصف الخارجي مشيد بحجارة مشذبة بغير انتظام، في حين أن الصف الداخلي للجدار مشيد بحجارة غشيمة صغيرة ومتوسطة الحجم. والواجهة الداخلية للجدار مقصورة بطبقة من الملاط الرمادي.

ويبدو أن استعمال الحجارة المشذبة كان قصراً على الأقواس وعتبات وصداغات الأبواب والشبابيك والأعمدة. والطبيعة العامة للبناء هي فقيرة عموماً. وتمثل هذه الطبقة المرحلة المبكرة في تاريخ المبنى. يقع العمود في الزاوية الجنوبية الشرقية من المربع الجنوبي، وهي ملاصقة للجدار الجنوبي الرئيسي للمبنى. والجزء العلوي من العمود يرتفع 48 سم عن مستوى سطح الأرض. وتشكل جزءاً من الصف الجنوبي للأعمدة. إن الأعمدة الأسطوانية مشذبة جيداً وهي بطول 1.46م وقطرها 50 سم. وفي الجزء العلوي منها إطار بارز، بعرض 8 سم وسمكه 3 سم. وهي تشكل على ما يبدو قاعدة للقوس الذي ينطلق منها. والأعمدة مغطاة بطبقة من الملاط الرمادي، وما زالت أجزاء واسعة من هذه القسارة ماثلة على الجزء السفلي من العمود. وتتصل قسارة أرضية المبنى بقسارة الجدار الشمالي الداخلية. وما زالت هذه القسارة بحالة جيدة من الحفظ. ولم يعثر على أرضيات حجرية أو فسيفسائية في هذا الجزء من المبنى.

الفخار

عينات الفخار المكتشفة في هذا الجزء قليلة جداً، ومعظم الفخار المكتشف من النوع المحلي. وتتكون العينة من كسرات من الفخار فقط ولم يعثر على أواني كاملة. ومعظم كسرات الفخار من نوع الفخار البيزنطي الشائع، والذي يتميز بالتحزيز العريض باللون الزهري الضارب للحمرة. وتعود كسرات الفخار إلى جرار وأباريق وقدر طبخ. كما تم العثور على كسرتين من فخار أسرجة الإضاءة. ويعود تاريخ الفخار المكتشف إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين.

أما الفخار المملوكي والعثماني المبكر فممثل بعدد من كسرات الفخار المزجج ثم الفخار المصنوع يدوياً.

مرافق أخرى

وتتمثل مرافق الموقع الأخرى في الجناح الغربي والكهف والبئر والسور الخارجي.

ويتكون الجناح من سلسلة من الغرف، سُيِّدَت جزئياً بالحجارة المشذبة. وتقع إلى الغرب من الكنيسة. ويبدو أن هذه الغرف معاصرة للمبنى الرئيسي، وهي في أغلب الظن جزء من مرافق الدير. ويوجد كهف كبير في الساحة الأمامية للمبنى. وقد تم طمر هذا الكهف من قبل سكان قرية عطارة قبل عقدين من الزمن لأسباب تتعلق بالسلامة العامة.

ويحيط بالموقع سور مبنى بالحجارة غير المنتظمة من ثلاث جهات الغربية والشمالية والجنوبية. أما المقطع الشمالي الغربي من السور فمشيد بحجارة ضخمة، وهي غير منتظمة الشكل، وقد وضعت بشكل رأسي. ويبدو أن هذه الحجارة قد استخرجت من نفس المكان، حيث يستدل على ذلك من آثار القطع في الجهة الشمالية من الموقع.

يوجد حالياً بئر مطمور أمام المقام من الجهة الشمالية، خارج مبنى الكنيسة. ويبدو أن هذا البئر قد استخدم لجمع مياه الأمطار للدير. ذلك أن أقرب نبع للمياه يقع في منطقة السقي التي تبعد حوالي الكيلومترين إلى الجنوب من مقام القطرواني وعين الجهير إلى الغرب من المقام. وعلى بعد بضعة أمتار إلى الغرب من المقام توجد معصرة نبيذ مقطوعة في الصخر الجيري. ويظهر في الجزء المكشوف منها حفرة جمع بعمق 1.80م، وهي مقصورة بطبقة من الملاط الأبيض.

بقايا الفترة المملوكية-العثمانية

تتكون بقايا الفترة المملوكية-العثمانية من مبنى المقام المشيد جزئياً على أنقاض الكنيسة البيزنطية ويمثل إلى جانب القبر المرحلة الثانية في تاريخ الموقع. ويمكن الافتراض بأن المنشآت المحيطة المتفرقة في الموقع كالكهف والبئر كانت قيد الاستخدام في المرحلة الثانية.

وصف المقام

شيد مقام القطرواني على أنقاض كنيسة بيزنطية. وهو بناء لمقام عادي يتكون من غرفة واحدة بقبتين نصف دائريتين. وساحة صغيرة أمامه

والمبنى معيني المخطط، أبعاده الخارجية 9.80 م شرق-غرب، و5.90 م جنوب-شمال. وقد حافظ بناء المقام على الواجهة الأصلية للكنيسة، وهو بناء واحد يفضي إلى الساحة من الناحية الشمالية. وقد شيد المقام بحجارة منتظمة وحجارة شبه منتظمة. ويتضح أن الحجارة المشدبة من البناء السابق قد أعيد استخدامها بشكل ثانوي في بناء المقام، بما في ذلك شاشيات وعتبات الأبواب والشبابيك وبعض الحجارة التي تحمل حروفاً يونانية، والتي تم استخدامها في بناء الجدار الشرقي. ويدل اختلاف تقنيات البناء على المراحل المعمارية المتعاقبة في تاريخ المبنى.

الجدران والقباب

يصل سمك الجدار الشمالي 85 سم. ويتكون من صفيين من الحجارة، واحد داخلي وآخر خارجي. والجدار محشو بالحصى والطينة. ويتكون الجدار الشمالي من 12 مدمكاً، بعرض 35 سم للمدمك الواحد في المعدل. والواجهة مشيدة بالحجارة المشدبة، ومعظمها معاد استخدامه بشكل ثانوي.

يتكون سطح المقام من قبتين نصف دائريتين. القبة الشرقية قطرها 3.80 سم والقبة الغربية وقطرها 3.90 سم، ويتوسط كل قبة حجر في مركزها. وقد سدت القبتين على رقتين دائريتين، بارتفاع 90 سم، مشيدة بحجارة الحقول الصغيرة. وتختلف تقنية البناء في القبتين، فالقبة الشرقية مشيدة بحجارة مشدبة باتقان، مرتبة على شكل دوائر مركزية تنتهي بحجر الغالق في المركز، في حين أن القبة الغربية مشيدة بحجارة الحقول الغشيمة.

وترتكز القبتان على رقتين، وتم تحويل المربع إلى دائرة عبر أربعة أقواس صغيرة في الزوايا الأربع لكلتا الغرفتين. كما فتحت كوتان صغيرتان "طاقة" على مستوى رقبة القبة. وكان جلياً بأن القبتين قد كسيتا

من الخارج بطبقة سميكة من الملاط الأبيض. وتعتبر هذه القباب أحد الملامح المميزة للعمارة العثمانية المبكرة، وربما يعود تاريخها إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

المبنى من الداخل

وجدران المبنى من الداخل مكسوة بطبقة من القصارة ومدهونة بالشيد الأبيض. ويمكن التمييز ما بين عدة طبقات من القصارة بما يشير إلى المراحل المختلفة في ترميم المبنى. وقد وصف توفيق كنعان وجود رسومات لسعف النخيل كجزء من التزيين الداخلي، حين كان المقام قيد الاستعمال. والزخارف مرسومة بالحناء، وهي مشكلة من الأرقام خمسة أو سبعة. وما زالت بقايا بعض هذه الزخارف مرئية على الجدار الشمالي للمبنى من الداخل.

ويقع محراب الصلاة في الجزء الأوسط للجدار الجنوبي للغرفة الشرقية للمقام، ويتجه كما هو مألوف في المساجد الإسلامية ناحية القبلة. وارتفاع المحراب 2.38م، وعرض 1.40م، وعمق متر واحد داخل الجدار الجنوبي، وهو بارز من الجهة الخارجية. والمحراب مشيد بحجارة مشذبة، وتشير طبيعة التشذيب أنها كانت معدة لبناء المحراب. ووجود المحراب شائع في المقامات الإسلامية.

وتوجد فتحات صغيرة للإضاءة في المقام، واحدة في وسط الجدار الشمالي للغرفة الشرقية، وترتفع 1.48 سم فوق مستوى الأرضية، وهي ذات شكل مربع تقريباً بارتفاع 37 سم وعرض 30 سم وعمقها 35 سم داخل الجدار. أما الفتحة الغربية فذات شكل مثلث وعرض القاعدة 80 سم وارتفاع 68 سم وعمق 36 سم داخل الجدار. وكانت هذه الفتحة مائئة بالرماد كدليل على الحرق، ويبدو أن الأسرجة النذرية كانت تضاء في هذه الفتحة.

الساحة والدرج

يفتح المقام على ساحة صغيرة تقع أمامه. وتحتل الساحة النصف الشمالي من المنطقة الوسطى من المبنى. ومستوى منسوب الساحة هو نفس منسوب البناء تقريباً. وقد استخدم الباب الشمالي للمبنى القديم كمدخل لساحة المقام. وهناك ممر حجري يتكون من بلاطات حجرية لا بد وأنه أضيف في مرحلة لاحقة.

هناك درج خارجي يؤدي إلى سطح المقام يقع عند الزاوية الجنوبية الغربية. وينطلق الدرج الذي أعيد بناؤه من جدار الكنيسة البيزنطية إلى مستوى المدماك السادس ويتكون من ثماني درجات ثم يدور جهة الشرق من أربع درجات وجهة الشمال من أربع درجات أخرى. حيث ينتهي بمنصة صغيرة على شكل مثلث. وعرض الدرج متر تقريباً. ومعدل ارتفاع الدرج يتراوح ما بين 26-30 سم، وهو مشيد بالحجارة الغشيمة.

القبر

هناك بقايا قبر مشيد بالحجارة المشذبة على بعد 20 متراً إلى الغرب من المقام. وقد تعرض القبر للنهب في الآونة الأخيرة.

التأريخ

أمكن التمييز بين مرحلتين رئيسيتين، استناداً إلى البقايا الفخارية والمعمارية. وتتمثل المرحلة الأولى المؤرخة إلى الفترة البيزنطية ببناء دير صغير في الموقع. أما المكونات الرئيسية للدير فهي الكنيسة والبئر والكهف ومعصرة العنب وجزء من السور الخارجي. وتؤرخ الدلائل الفخارية البسيطة إلى الفترة البيزنطية، وربما في القرن الخامس وبداية القرن السادس. وتشير تراكمات الاستخدام الضحلة إلى فترة استعمال قصيرة للمبنى. أما مرحلة الاستخدام الرئيسية الثانية فتتمثل في بناء المقام، ربما نحو نهاية الفترة المملوكية وبداية الفترة العثمانية. ويتأكد هذا التاريخ من خلال وجود الفخار المزجج.

أعمال الترميم

قامت دائرة الآثار الفلسطينية بسلسلة من أعمال الترميم في المقام في إطار المشروع الطارئ لتنظيف المواقع الأثرية في فلسطين الممول من قبل الحكومة الهولندية سنة 1997. كان المقام آيلاً للسقوط وزاويته الجنوبية الشرقية مهدمة كلياً والجدران الشرقية والغربية مهدمة جزئياً. كما كانت القبتان في حالة إنشائية حرجة تتخللها الثقوب والشقوق، خصوصاً القبّة الغربية. وقد ترك المبنى مهجوراً ودون عناية على مدار فترة طويلة. وعانى المبنى من مشاكل إنشائية كما هو ظاهر في القباب والجدران. وكان الهدف الرئيسي لأعمال الترميم هو إنقاذ المبنى المهتد وتدعيم جدرانه وقبابه. وقد اقتصر العمل على الواجهات الخارجية. وجرى توثيق شامل لكافة مراحل العمل، بما في ذلك توثيق الوضع القائم والرفع الهندسي للمبنى والجدران والمساقط وتفصيل معمارية أخرى. واشتمل العمل على إعادة بناء الأجزاء المنهارة في الزاوية الجنوبية الشرقية للمبنى وتدعيم الجدار الغربي. كما جرى تدعيم القبّتين والرقبة وإعادة بناء الأجزاء المفقودة في القبّة الغربية. وجرت قصارة القبّتين ودهنهما باللون الأبيض. كما نفذت أعمال الكحلة باستخدام المونة التقليدية المعدة من الشيد والفخار المطحون. وزوجت أعمال الترميم في هذا المبنى التاريخي ما بين التقنيات الحديثة والتقليدية.

خلاصة

يمثل موقع القطرواني مقام ولي إسلامي بقبّتين من الفترة المملوكية والعثمانية. وقد شيد على أنقاض كنيسة بيزنطية تعود للقرن الخامس الميلادي. وتتكون بقايا الفترة البيزنطية من الكنيسة والبئر ومعصرة العنب محاطة بسور دير سكن لبرهة قصيرة. وربما يعود هذا الدير للمستوطنة البيزنطية في عطارة وطرفين وبيرزيت. ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن التقاليد الدينية المرتبطة بالمكان وقداسته قد استمرت في مرحلة لاحقة في شكل جديد من التصوف

الإسلامي. ويعتبر دير ومقام القطرواني من هذه الناحية مثلاً حياً على استمرارية التقاليد الدينية حول المكان.

المصادر العربية

البرغوثي، عبد اللطيف، حكايات جان من بني زيد. جامعة بيرزيت، 1979.

كنعان، توفيق، الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين. وزارة الثقافة الفلسطينية، دار الناشر، رام الله، 1998 (ترجمة نمر سرحان، تحرير د. حمدان طه).

عراف، شكري، طبقات الأنبياء والأولياء الصالحين في الأراضي المقدسة. الجزء الأول والثاني، ترشيحا، 1993.

علوش، موسى، قصص شعبية فلسطينية. بيرزيت. 1999.

مصادر أجنبية

Bagatti, B.

Antichi villagi cristiani di Samaria. Jerusalem: 116-117. 1979

Ben-Joseph, S.

"The tomb of Sheikh Qatrawani". In Scared Islamic Shrines in the Land of Israel, edited by D. Nefenlauz. Ariel 117-118: 1996 (Hebrew).

Canaan, T.

Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine. 1927.

Finkelstein, I. and Lederman, Z.

Highlands of Many Cultures. The Southern Samaria Survey, Tel Aviv University, 1997, Jerusalem.

Kallai, Z.

"The Land of Benjamin and Mt. Ephraim". In Judea Samaria nad the Golan Archeolgal Survey 1967-1968. ed. by M. Kochavi. The Archeological Survey of Israel, Jerusalem, 1972: 172.

Ovadiah, A. and de Silva, Carla Gomez

"Supplementum to the Corpus of the Byzantine Churches in the Holy Land". Levant 13 (1981): 220-261.

Palestine Exploration Fund, Sheet No. XIV.

Schmidt, H. and Kahle, P.

Volkserzahlungen aus Palastina. I, 1918.

Taha, H. "The Sanctuary of Sheikh el-Qatrawani". Liber Annuus, 52, 2002:441-456, Pls. 43-46.

Taha, H. and Yasin, J.

"Le maqam El-Qatrawani A Attara". Dossiers di Archeologie. No. 240, Janv/Fev, 1999: 127-128

de Vaux, R.

"Notes archeologiques et topographiques". RB 531946: 260-274.

